حول فلسفة نيتشه

سبيل مطروق . . . !

للأستاذ زكريا ابراهيم

اعتقد نيتشه أنه رائد الإنسانية الأول ، وظن أن أحداً قبله لم يطرق السبيل الذى طرقه ؛ ولكنّ الرّواد قبله كانوا كثيرين ، وهذا السبيل الذى ضرب فيه مطروق ! . فهذا الإيمان الشديد بالأرستقراطية وعبادة الذات ، قد سبقه إليه لاروشيفوكو وهلفتيوس وريتان وتين وبرودون وفلوبير وغيرهم . وذلك الاعتقاد الراسخ باستحالة المساواة بين الناس قد ذهب إليه من قبل « جوبينو » الذى أُعجب به نيتشه أشد الإعجاب . وتلك الكراهية الشديدة للمذاهب الاشتراكية والفوضوية ، قد تردّدتْ من قبل على لسان « هارتمان » الذى أزرى به نيتشه كل الإزراء . وهذه الثورة العنيفة على الأخلاق السائدة والقِيَم الجارية ، قد لقيت من قبل فى « جويُّو » أحسن مُعبّر عنها . وتلك الدعوى الجريئة إلى « اللاّ أخلاقية » immoralisme قد سَبقه إليها أحد معاصريه وهو « شتِرْنر » Stirner . — فليست رسالة زرادشت إذن جديدة كل الجدّة على الإنسانية ، وإنما هى رسالة ردّدها على مسمع منها كثير من مفكرى العصر الحديث . وإذا كان فى هذه الرسالة شىء من الطرافة ، فذلك لأنها تعبّر عن شخصية صاحبها التى استطاعت أن تؤلف بين كل هذه الأفكار المختلفة . ومعنى هذا أن ما يروعنا ويستهوينا فى نيتشه ، هو أولاً وبالذات ، شخصيته ، لا آثاره . فهذه الشخصية الرائعة تنطوى فى أعماقها على نفس فنانة ، وقلب شاعر ؛ وفى أبعد أغوارها يكمن « الإنسان العظيم » الذى طالما تحدث عنه نيتشه نفسه !

بيد أننا مع ذلك مضطرون إلى أن نضرب صفحاً عن تلك الشخصية ، لكى نقصر النظر على آثارها . وقد أراد نيتشه أن تحكم عليه الإنسانية بما خلّف من آثار ، فلم يبق إلا أن نحاسبه على هذا الأساس . وما دام هو قد تنكّر للماضى ، وثار على تراث الإنسانية كله ، فلا بأس من أن نحكم على آثاره محاولين أن نتلمس ما فيها من جدّة مطلقة . — ولكن لا بد لنا من أن نقرر قبل ذلك أن نيتشه قد استثنى بعض المتقدمين ، فاعترف بالفضل لطائفة من الكتاب والمفكرين ، ممن أنجبتهم الحضارة الفرنسية « التى هو مدين لها » . وقد حرص نيتشه على أن يذكر بصفة خاصة ستندال ، فإن هذا المفكر الفرنسى — فيما يزعم نيتشه — قد استلبه أجل فكاهة إلحادية يمكن أن تخطر بالبال ، وهى قوله : « إن العذر الوحيد الذى يشفع لله هو أنه غير موجود ! » . ومهما يكن من شىء ، فإننا إذا استثنينا الإعجاب الذى أبداه نيتشه ببعض المفكرين الفرنسيين ، مثل : بول بورجيه ، وبيير لوتى ، وأناتول فرانس ، وجى دى موباسان ؛ وبعض الشعراء الألمان مثل هينرش هَيْنى ؛ فإننا نجد أنه كان يعتبر دائماً أن أحداً لم يسبقه إلى تلك الأفكار الرائعة التى أعلنها ، وتلك الآراء الصائبة التى أبداها !

ولكننا نلاحظ — بالرغم من هذا الادعاء — أن جوبينو قد سبق نيتشه إلى كثير من هذه الآراء : فقد نادى جوبينو بانعدام التساوى بين الأجناس البشرية ، واعتبر الجنس الأوربى أرقى الأجناس ، وجعل على رأس هذه الأجناس جميعاً الجنس الجرمانى « الأشقر » . وفضلاً عن هذا ، فقد ذهب أيضاً إلى أن من حق الجنس الأوروبى — باعتباره أرقى الأجناس — أن يتحكم فى الأجناس الأخرى — باعتبارها أجناساً سفلى — وارتأى جوبينو أيضاً أن من الواجب تكوين صفوة أرستقراطية مختارة ، تكوّن من تلك الجنسيات nationalités التى تنتسب إلى أرقى الأجناس races . — وقد انتشرت هذه الآراء التى نادى بها جوبينو فى ألمانيا كلها ، فأنشئت فى أواخر القرن التاسع عشر ، جماعة تحمل اسم جوبينو ، وتعرف فى ألمانيا باسم : Gobineau Vereinigung . وترددت آراء جوبينو على لسان نيتشه ، فقال فيلسوفنا بأرستقراطية الاجناس ، وإمكان قيام جنس أعلى ، أو نوع راق ، يكون جديراً بأن يطلق عليه اسم الجنس « الأعلى » أو « فوق الإنسانى »

وليس جوبينو وحده هو الذى سبق نيتشه إلى بعض الآراء التى ادعاها نيتشه لنفسه ، بل لقد سبقه إلى ذلك أيضاً فيلسوف

آخر ألمانى ، هو ماكس شترنر الذى نادى بمذهب « اللاأخلاقية » والفردية المطلقة . وسـواء أكان نيتشه قد عرف شترنر أم لم يعرفه ، فإن هذا الفيلسوف (الذى عاش من سـنة ١٨٠٦ إلى سنة ١٨٥٦) كان سلفاً مباشراً لنيتشه فى المنـادادة بالمذهب اللا أخلاقى . ويمكن أن تلخص فلسفة شترنر فى عبارة واحدة هى « تقديس الذات » ، أو « عبادة الأنا » . فالذات هى مركز العالم ، والعالم ـ بما فيه من أشياء وأفكار وأفراد ـ إنما هو ملك للذات . وكل ما فى الـكون ليس له وجود حقيقى بالقياس إلى الذات ، التى هى الشىء الحقيقى الوحيد و « الإنسان » المجرّد أو الإنسان باعتباره معنى كلياً (وهو ما يريد فويرباخ أن يجعله موضع تقديسنا) ليس له أى وجود حقيقى ، « وإنما هو خيـال لا يكون له وجود حقيقى إلا فى ذاتى وبذاتى » . ولما كانت الحقيقة الوحيدة هى حقيقة « الذات » أو « الأنا » فإن فى استطاعتنا أن نتخذ لنا من هذه « الذات » le Moi مبدأ نسميه باسم « الواحد » أو « الفرد » La' unique . وما دامت الذات هى المبدأ الوحيد الذى يجب أن نأخذ به ، فإن علينا أن نستبعد كل سلطة خارجية ، سواء أكانت سلطة « الله » أم « الانسانية » أم « الأخلاق اللاهوتية » ، أم « الآمر المطلق » . . إلى آخر تلك السـلطات التى يراد فرض سيطرتها على الذات . وإذن فإن علينـا أن نهدم الأخلاق ، لأن الأخلاق تقوم على « فكرة متسلطة » هى فكرة « الواجب » أو « الآمر المطلق » . وهنا نجد أن نيتشه يتفق مع شترنر ، فإن زرادشت سينادى بهدم الأخلاق ، والثورة على المسيحية التى تضع للحياة قيماً فاسدة منحلة . . . أما القول بعبادة الذات أو تقديس « الأنا » فهذا أيضاً مما يتفق فيه نيتشه مع شترنر ، فإن نيتشه هو الذى يقول: « إن وراء أفكارك وعواطفك (يا أخى) يكمن سيد قوى ، بل حكيم مجهول ، هو ذاتك نفسها Selbst وهو فى بدنك يقيم ، بل هو بدنك نفسه » !

ولا تقف أوجه الشبه بين نيتشه وشترنر عند هذا الحد ، بل إنهما ليتفقان أيضاً فى شىء أعمق من هـذا ، وهو القول بإرادة القوة « Wille znr Macht » ؛ فقد جعل شترنر لإرادة التوسع فى القوة ، والامتداد بالذات ، أهمية كبيرة فى فلسفته ، حتى إن هذه الإرادة لتبدو عنده باعتبارها « القوة الأساسية للـكائن البشرى » ؛ وهذه الفـكرة هى التى ستصبح على لسان زرادشت الأغنية المحببة التى يرددها نيتشه فى كل حين . — فنحن نرى من هذا كله أن شترنر قد سبق نيتشه فى الثورة على الأخلاق ، والانتقاض على المسيحية ، والدعوة إلى عبادة الذات. فلم يكن نيتشه إذن أول من ضرب بقدمه فى هذا السبيل ، بل كان شترنر هو الرائد الأول الذى سار فى الدرب الذى طرقه السابقون ، حتى نهايته . وكل ما فعله نيتشه هو أنه جدد أفكار شترنر ، وردد آراءه — دون أن يـكون قد وقف عليها — كما ردد أيضا آراء السوفسطائيين والـكلبيين وبعض المحدثين مثل لاروشيفوكو وهلفتيوس وهولباخ وفربدريك شليجل وستندال — مع وقوفه عليها — .

ونستطيع أن نضيف إلى هؤلاء الفلاسفة الذين أثروا فى نيتشه أولئك الذين سبقوه إلى الآراء التى نادى بها، فيلسوفا آخر يتفق مع نيتشه فى أنه شاعر مثله ، ويختلف عنه فى أنه ليس منحرف الطبيعة مثله . أما هذا الفيلسوف الشاعر فهو جويو Guyau صاحب كتاب « صورة مجملة لأخلاق بلا تكليف ولا جزاء » [1] وقد ذهب هـــذا المفكر الفرنسى فى مؤلفه مذاهب شتى ، بعضها يتفق مع ما ذهب إليه نيتشه اتفاقا كبيراً حتى إنه ليصعب علينا أن نتصور أن يكون نيتشه لم يطلع على ما جاء فيها . ومما يتفق فيه الفيلسوفان :

أولا : القول بأن « الحياة هى الـكل » tout est vie بمعنى أنه ليس فى وسعنا أن نتصور شيئاً ما على أنه موجود حقيقة إلا إذا كان هذا الشىء حياً .

وثانياً : القول بأن الأخلاق التى تنـادى بفكرة الواجب والآمر المطلق ، أخلاق فاسدة يجب القضاء عليها ، لأن الالزام أو التكليف يرجع إلى الحياة نفسها ، إذ الحياة هى التى توفر للفرد الشعور بالقدرة على العمـل ، وليس هناك قوة سـحرية غريبة « كالآمر المطلق » المزعوم

---

(١) « Esquisse d' une moryale sans obliqation ni sanctiou »

وهذا كتاب فريد يجب أن ينقل إلى العربية ، ولعلنا نلخص للقراء طرفاً مما جاء به فى مقال نكتبه عن جويو

وثالثاً : القول بأن التشاؤم يدعو إلى الانحلال والفناء ، في حين أن التفاؤل يكسب الحياة خصباً وامتلاء ، فكل من جويو ونيتشه يعتبر التشاؤم مظهراً للانحلال والهبوط والفناء . . .

ورابعاً : القول بأن الفن هو المعنى الباطن للحياة بمعنى أنه ليس مجرد متعة أو ألهية ، بل هو أمر جدي له قيمته في الشعور بالحياة الحافلة الخصبة المليئة . فكل من جويو ونيتشه ينظر إلى الفن نظرة حيوية ، ولا يعده عديم الغاية بل يذهب إلى أن الفن للحياة وبالحياة . ومعنى هذا أن الفن عندهما ليس للفن — كما يقال عادة — بل هو غائي ، وغايته ليست تقويم الاخلاق أو إصلاح الناس ، بل تقوية الشعور بالحياة

وأما النواحي التي يختلف فيها جويو مع نيتشه ، فهي تلك التي تمس مشكلة « الفردية » ؛ وذلك لأن جويو يعتقد أن الرجل القوي ليس هو الرجل المتوحد (كما يزعم نيتشه) بل هو الرجل الذي تجمعه بغيره من الناس ، وشائج العقل والقلب . فعلى الرغم من أن جويو يتفق مع نيتشه في القول بالحياة الخصبة المليئة ، إلا أنه يتصور هذه الحياة على أنها أولا وبالذات ، حياة اجتماعية تنعدم فيها الأنانية ، لأن الأنانية سلب للحياة نفسها ، وإنكار لكل خصب أو امتلاء . . ولعل خير ما يوضح لنا الفارق بين نيتشه وجويو ، هو أن الأول يدعونا إلى اتباع الطبيعة (كما دعا إلى ذلك الأقدمون) ، في حين أن الثاني يدعونا إلى تعميق الطبيعة . فنيتشه يقول : « اتبع الطبيعة » Suivez la nature ، وأما جويو فانه يقول : « عمق الطبيعة » Approfondissez la nature ومهما يكن من شيء ، فان جويو هو بلا ريب واحد من أولئك الرواد الذين سبقوا نيتشه في الطريق الذي سلكه . وقد رأينا أن هؤلاء الرواد كثيرون ، فهل علينا من حرج بعد هذا إذا قلنا إن السبيل الذي سلكه نيتشه سبيل مطروق ؟

(السويس) زكريا ابراهيم
مدرس بمدرسة السويس الثانوية

حكم قراقوش

تأليف

الدكتور عبد اللطيف حمزة

المدرس بكلية الآداب . جامعة فؤاد الأول

أول بحث تاريخي في إنصاف بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين الأيوبي وكتاب الفاشوش لابن مماتي ، ومعه بحث موضوعه السخرية في الأدب ، وتحقيق لرسائل الوهراني ، ثم مقارنة بين الأدب المصري والأدبين العربي والأوربي.

الثمن ١٨ قرشاً

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

٢ شارع الشيخ محمد عبده بجوار الأزهر

تليفون ٥١٣٢٢ — ص . ب الغورية رقم ٧

أكبر المكاتب العربية وأشهرها

بها أعظم استعداد لنشر المؤلفات

الحديثة والكتب القديمة . . . .